صفحات ونفحات

من مذهب ذى النون فى المعرفة والمحبة

بقلم
الدكتور: محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

سبقت الإشارة إلى أن لذى النون مذهبا تيوزوفيا يدور حول الذات الإلهية وصفاتها ، وأن لهذا المذهب ناحيتين يمكن أن يتناوله الباحث منهما ، وهاتان الناحيتان هما معرفة الذات الإلهية ووحدانيتها من ناحية ، ومحبة الذات الإلهية والاتصال بها من ناحية أخرى ، وها نحن أولاء نعرض لهاتين الناحيتين بيانا للخصائص التيوزوفية والروحية التى ينطوى عليها مذهب ذلك الصوفى المصرى المحقق الذى يعد بحق واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الإسلامى .

فالمعرفة عند ذى النون على ضروب ثلاثة : معرفة عامة المؤمنين ، ومعرفة المتكلمين والحكماء ، ومعرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم . وليس من شك فى أن هذا الضرب الثالث من المعرفة هو عند ذى النون أرقى وأسمى ضروبها جميعا ، وذلك لأنها تتخذ موضوعها من الذات الإلهية وما لهذه الذات من صفات الوحدانية ، وهى لا تحصل عن طريق الكسب والتعلم والتصور والاستدلال ، وإنما هى إلهام ونفث فى الروع ونور يقذفه الله فى سر العبد فيعرف العبد الله معرفة مباشرة لا واسطة فيها وبيقينية لا شك يعتريها . ويدل على ذلك ما أجاب به ذو النون وقد سئل بم عرف العارفون ربهم ؟ فقال ما نصه : « إن كان بشىء فبقطع الطمع والإشراف منهم على

اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها ، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم إنهم وصلوا بعد إلى الله بالله » ، ويدل عليه أيضا ما أجاب به وقد سئل بم عرفت ربك ؟ فقال : « عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى » . هـذا فيما يتعلق بمعرفة الله ، أما فيما يتعلق بالمعرفة عامة فإن ذا النون يرى أنها تنال بأشياء ثلاثة : بالنظر فى الأمور كيف دبرها ، وفى القادير كيف قدرها ، وفى الخلائق كيف خلقها .

وإذا كانت معرفة الإنسان للذات الإلهية معرفة إلهامية على هذا الوجه الذى لا يدانيها فيه أى ضرب من ضروب المعرفة الأخرى سواء من حيث الموضـوع والمنهج ، فقد ترتب على ذلك أنه بغير هذه المعرفة الإلهامية المباشرة لا يمكن أن تعرف الذات الإلهية إلا من طريق صفات السلوب ، إذ أن الذات الإلهية ليس كمثلها شىء مما يتصوره وهم الإنسان . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الذات الإلهية قد تفردت عند ذى النون بالوحدانية ، كما يعنى أن نظريته فى المعرفة متصلة اتصالا وثيقا بنظريته فى التوحيد : فمنده أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج ، وأنه ليس فى السموات العلى ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله . وليس أدل على هذا مما يناجى به ذو النون ربه فيقول : «إلهى ، ما أصغى إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شىء . . . إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته ، ولا حاجزا إلا رفعته ، ولا وعرا إلا سهلته ، ولا بابا إلا فتحته ، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك ، وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بالرضى منك فؤادى وجميع أحوالى ، حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك » .

على أن هذه النزعة التيوزوفية التى تظهر من خلال نظريتى ذى النون فى المعرفة والتوحيد ، والتى أجملناها هنا ، قد عرض لها هذا الصوفى مفصلة ، وعرضها فى صورة شعرية ضمنها قصيدة طويلة نقف منها عند بعض أبياتها الدالة على منزعه التيوزوفى فى معرفة الذات الإلهية وإثبات الوحدانية لها : قال ذو النون : —

رب تعالى فلا شىء يحيـط به ... وهو المحيط بنا فى كل مرتصد

لا الأين والحيث والكيف يدركه ولا يحد بمقدار ولا أمد
وكيف يدركه حد ولم تره عين وليس له فى المثل من أحد
أم كيف يبلغه وهم بلا شبه وقد تعالى عن الأشباه والولد
من أنشأ قبل الكون مبتدعا من غير شىء قديم كان فى الأبد
ودهر الدهر والأوقات واختلفت بما يشاء فلم ينقص ولم يزد

إلى أن يقول :

وجل فى الوصف عن كل الصفات وعن مقال ذى الشك والإلحاد والعند
من لا يجازى بنعمى من فواضله ولم ينله بمدح وصف مجتهد

وكما كان لذى النون نظرية فى المعرفة وتوحيد الله فقد كان له أيضا نظرية فى المحبة : فهو يرى أن ثمة حبا متبادلا بين العبد المحب وبين الرب المحبوب ، وأن هذا هو الحب الإلهى الذى ينبغى على من تحقق به ألا يتحدث عنه أو يبوح به لمن لا يعرفون من الحب غير معناه الحسى . ويرى ذو النون أن سبيل العبد إلى إقبال الرب عليه وحبه له هو أن يكون العبد صابرا شاكرا ذاكرا ، أما إذا كان العبد ساهيا لاهيا معرضا عن ذكر الله فذلك علامة إعراض الله عنه . ويرى أيضا أن الرب إذا آنس العبد بخلقه أوحشه من نفسه ، وإذا أوحشه من خلقه آنسه بنفسه .

والمتأمل فيما أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وقصائد منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعا صريحا سواء فى تعبيره عن إقبال الله على العبد أو إقبال العبد على الله ، وأنه باستعماله لفظة الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التى عاصرته ، والتى تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالا صريحا فيما كانت تناجى به ربها ، أو فيما كانت تتحدث به عن علاقتها به وإقبالها عليه وإيثارها له . وعلى الرغم من أن كتب التراجم والطبقات قد تضاربت فى إثبات الصلة بين ذى النون ورابعة ونفيها ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر ما بين مذهبيهما فى الحب الإلهى واستعمالهما للألفاظ الدالة عليه والمعبرة عنه من أوجه الشبه ، ومهما يكن من شىء فإنه يتبين من بعض ما أورده أبو نعيم أن ذا النون قد لقى امرأة وصفها بأنها صديقة دون أن يذكر اسمها ، وأنه استمع إليها ونقل عنها كلاما فى تعريف

المحبة ووصفها جرى على لسانها فى ثنايا ما دار بينه وبينها من حوار ، كما نقل عنها أبياتا فى تقسيم الحب إلى حبين : حب الهوى ، وحب خليق بذات الله وحده . ونحن إذا وقفنا عند هذه الأبيات التى تقول فيها مخاطبة ربها : —

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا فى ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وإذا عرفنا أن هذه الأبيات تنسب إلى رابعة انتهينا إلى أن ذا النون إنما يتحدث هنا عن هذه الزاهدة العابدة العاشقة وعن حبها لله دون أن يذكر اسمها .

وكما كانت رابعة تذهب فى حبها الإلهى مذهباً قوامه الإقبال على الله ، وإيثاره على كل من عداه ، والتنزه عن عبادته خوفاً من ناره أو طمعاً فى جنته ، بحيث كانت غايتها القصوى هى أن ينكشف عن عين قلبها غين الحجاب ، فتستمتع بما يبيحه الله لها من مطالعة وجهه الكريم ، فكذلك كان ذو النون يذهب فى حبه هذا المذهب الذى جعله يتخذ من الله غايته ومعقد رغبته : فقد كانت رابعة تناجى ربها بقولها « إلهى ، إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى » . وكانت تتحدث عن حبها الإلهى فتقول إنها لم تكن تعبد الله إلا حبا له وشوقا إليه . وهذا هو ما يعبر عنه ذو النون تعبيرا وإن اختلف فى بعض تفاصيله عما ذهبت إليه رابعة ، فهو يظهرنا من غير شك على أن الفكرة الرئيسية التى انطوى مذهبه فى الحب عليها ، والغاية القصوى التى كان يرمى فى هذا الحب إليها ، إنما هى حب الله لذاته ، والإقبال عليه ابتغاء لوجهه ، دون أن يكون له من وراء ذلك أى مطمع آخر ، كما يدل على هذا كله قوله فى هذه الأبيات :

أموت وما مانت إليك صبابتى ... ولا رويت من صدق حبك أوطارى
منای المنا كل المنا أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ... وموضع شكواى ومكنون إضمارى

وهكذا ينتهى بنا كل ماتقدم من حديث عن حياة ذى النون الروحية ومذهبه فى الطريق إلى الله وفى المعرفة اليقينية والمحبة الإلهية إلى أن ذا النون المصرى لم يكن زاهداً أو عابداً من طراز الزهاد والعباد الذين حفلت بهم عهود الحياة الروحية الإسلامية الأولى فحسب ، وإنما كان صاحب منهج وصاحب مذهب ، وكان أخص خصائص منهجه التحليل والتعليل والتأويل وكلها أشياء تبينا بعض آيآتها من خلال ترتيبه وتصنيفه للأحوال والمقامات ، كما كان أبرز مايتسم به مذهبه من سمات ، هذه الصبغة التيوزوفية التى اتخذ فيها من الله موضوعا أسمى لمعرفته ومحبته وغاية قصوى لرغبته ومنيته .